بكّله ... في «الخندق الغميق»

بقلم سميرة عزام

لعلنا لا نتجنى على الحقيقة لو نحن قلنا بان الرواية والقصة العربيتين لم تنالا من عناية النقاد ربع ما منحه هؤلاء للشعر وقضاياه في السنوات العشر الاخيرة، فقد برزت قضايا الشعر بصورة باتت معها محور هذا الجدل الادبي الذي يدنو من هذه الموضوعية، في حين ظل الانتاج الروائي والقصصي عموما بعيدا عن هذا المجال، لاسباب لا يمكن تعليلها بشكل مقتضب باكثر من القول بانه لم يملك ان يطرح قضاياه ببداءة مثيرة كقضية الشعر الحر، التي كانت مفتاحا لكل هذه الدراسات والمحاكمات التي انصبت على الشعراء وانتاجهم الشعري، لذا فظهور دراسة رصينة قيمة لعمل روائي، كدراسة الانسة نازك الملائكة لرواية الدكتور سهيل ادريس « الخندق الغميق »، خليق بان تعقبه دعوات تلح على ضرورة المزيد من الاحتفال بالعمل الروائي، فالجهل باي عمل ادبي – كما يرى الناقد الاميركي (راي وست) – لا يكون نتيجة افتقاره الى خاصية معينه، اذ انه لا يملك ان يشق طريقه الى العالم من تلقاء نفسه، بل يتلبث هادئا في انتظار الاعتبار الذي يستحقه، فاذا ما فشل في الحصول على هذا الاعتبار، كان مبعث ذلك ظروف عدم الادراك المحيطة به.

وليس من شك في ان دراسة كهذه قد اقتضت جهدا يكاد يدنو من جهد كتابة الرواية نفسها، ولكن ايفاء اي عمل حقه، والخروج به من جو « عدم الادراك »، يقتضي بالطبع مثل هذا التوافر الدقيق.

وبعد، ليست هذه دراسه اخرى للرواية بالمعنى الشامل، فالتقائي مع نازك في كثير من النقاط في مجال الموقف النقدي للرواية، يجعلني ابدو بمظهر من يحاول السطو على اجتهاداتها، ولكنني احب ان اقف وقفة خاصة على احدى المراحل التطورية التي قسمت نازك نمو شخصية « سامي »، بطل الرواية، على اساسها

لقد حددت نازك مرحلة تطور سامي من نقطة «الواجب» الى نقطة « الحياة » باربع مراحل:

أ – مرحلة الانقياد الكامل لاراء ابيه

ب – مرحلة التأمل غير الواعي

ج – مرحلة التمرد غير المدروس

د – مرحلة التمرد الفكري المدروس الذي ينبع عن تصميم وارادة وادراك واع وتتمثل في خلع سامي للجبة والعمة.

والواقع ان هذه المرحلة الرابعة تحتمل مزيدا من المناقشة حول اصالة هذا التمرد، وهل جاء بالفعل نتيجة تمرد فكري مدروس، وهل كان الحظ الفكري في عملية الصراع الذي ادى الى هذا التمرد مساوقا لردود الفعل الاجتماعية من عمته وجبته؟

للاجابة على هذا السؤال يتعين علينا ان نتتبع خطين في حياة سامي قبل لبس الجبة وبعدها. خط ردود الفعل النفسية لصورة الشيخ الظاهرية، ثم خط المؤثرات الفكرية المختلفة التي ادت الى نوع من هزة الكيان العنيفة، التي جعلته ينبذ صورة الشيخ هذه.

والحقيقة ان الحافز الانفعالي، انفعال سامي بالجو العام لبيئته، وبيته بصورة خاصة، كان دافعا لدخوله المعهد الديني بشكل يكاد يفتقر الى ارادة الوعي. فهو ابن شيخ اعتاد ان يقيم السهرات الدينية في بيته، حيث تتلى السيرة النبوية والقرآن باصوات « ذات ارنان ذهبي »، تدفع الفتى سامي الى ترقب تلك السهرات، ليعيش ثانية في ذلك « الجو الذهبي العجيب ». وهو حساس ينفعل بالصوت الجميل فيقف دقائق يرهف اذنه ويتمايل مع انغام الاذان حين يصعده صوت جميل.

ولعل سامي احس لنفسه باهمية خاصة حين افسحت له (الجماعة) التي تترد على سهرات ابيه الدينية مكانا بينها، بل وحثته على ان يحفظ عشرا من القرآن يرتله في سهرة قادمة.. ثم كافاته، اذ نجح، بمصحف صغير مذهب الحواشي. ورغم انني من رأي نازك في عدم اعطاء حادثة الشيخ ذي العكازين الذي طارده اهمية معينة، واعتبارها سببا مباشرا لدخوله المشيخة، الا انني لا استطيع ان اغفل تأثيرها النفسي عليه في تكثيف انفعالاته، ومن ثم انجذابه الى ذلك الجو الغامض المسحور. كل هذا الى جانب ترحيب ابيه بالفكرة وحثه عليها كلما رأى مناسبة لذلك (لقد قدر عليه وكتب على جبينه ان يكون شيخا مثل ابيه) و(العمامة تاج العرب) ثم ان سيطرة فكرة«الواجب» على مسلكة العام قد دفعته الى دخوله المعهد راضيا متلهفا لساعة يبدو فيها شيخا رصينا ذا جبة وعمامة.

ثم تبدا مشكلة مع الجبة والعمامة، ويبدا احساسه بانه مع هذه الجبة والعمة لا يحيا الحياة الطبيعية التي يحياها ابناء جيله ممن اختاروا لانفسهم غير الطريق التي اختار. والشواهد التي ساقها المؤلف على احساسه هذا كثيرة، فقد جندها ببراعة لتفرض علينا التعاطف مع موقف سامي حين قرر نبذ الجبة والعمامة.

موقف اخوانه – وهم طلبة دين مثله – حين لبس جبته وعمته فبدا منظرها على سامي الضئيل الجسم مدعاة للضحك، احساسه بثقل الجبة على كتفيه والعمة على راسه واضطراره الى ان يكون رصينا فلا يمشي على عجل مثلا، او يحاول القفز الى الترام.

نظام المدرسة الذي يقضي بحلق الرؤوس فلا تكون للمشايخ شعور صقيلة.

انفصاله عن رفاق طفولته بهذا الحاجز الضيق، واحساسه بالوحدة. معابثة صبية الحي له وهم يلاحقونه بندائهم « شيخ صغير، شيخ صغير » حادث المراة التي تراه ماشيا بالجبة والعمة فتستمهله حتى تدعو اختها فتتفرج عليه».

حرمانه مما تفرضه الغريزة من التلفت الى الجنس الاخر.

هذه العوامل كلها وغير ذلك مما لايتسع المجال لايراده قد ضغطت روحه بشكل زهده في التصدي لهذه الانظار التي تتجه اليه « مستفهمة او مشفقة او ساخرة » كأنما هو ظاهرة غريبة . ثم تأتي عاطفته لجارته « سميا » فتزيده احساسا بوطأة تلك القيود « ارجوك ، لاتذهب معي فانت شيخ » .

ودفاعه المفتعل بقوله « ان الشكل لايؤثر على الجوهر » لم يكن يملك الاساس العقلي ، بدليل انه هو نفسه لم يكن مقتنعا بهذا الكلام ، والا فلماذا حرص على ان يخلع الجبة والعمة ، قبل ان اتجه الى منزله في المريجات ، المجاور لمنزل سميا ؟

هذا **المظهر** كان سر عذابه ، وكان الرمز لكل ردود الفعل الاجتماعية المعاكسة التي سحقت انسانيته .. وانتهت به الى التمرد على هذا الرمز .

بتتبعنا لهذا الخط نستطيع ان نلمس ببساطة ان تمرد سامي كان تمردا **انفعاليا** يمتلك من البعد النفسي أكثر بكثير مما يمتلك من البعد الفكري ، ولكننا لانستطيع ان نفرض هذا ببساطة قبل ان نعود فنتتبع المؤثرات التي يمكن ان تنهض كعوامل لتكوين اي موقف فكري له .

لا جدال في ان صغر سن سامي حين دخل المعهد كان كافيا ليؤكد بانه اذا كان ثمة تفاعلات فكرية فانها تكون قد حصلت في الفترة التي تلت دخوله المعهد ...

فما هو مستوى هذا المعهد العلمي اولا ؟

لقد استطاع المؤلف بفصول شائقة لعلها امتع ما في الرواية ان يكشف عن تفاهة ذلك المستوى ..

« كان يضيق ذرعا بدرس المنطق ولا يكاد يفهم منه شيئا ، وكان المدرس يحفظه فيردده عليهم احكاما وقواعد جافة لايمثل لها بشيء من حياتهم » .

« اما درس الحديث فقد كان يقذفهم في حيرة وتململ شديدين . ذلك ان المدرس كان يأتيهم كثيرا بما يشبه الخرافات على انها من صحيح الحديث » .

واما الادب العربي فقد كان مهزلة تدعو الى الرثاء على يد الشيخ الفرفور الذي لم يكن اكثر من نجار دمشقي . ولما أعفى المعهد فرفورا هذا من مهمته حل محله مدرس سوري كانت دروسه على حد تعبير المؤلف « هي التي كهربت روحه بالموهبة الادبية ورسمت له طريق مستقبله » .

هكذا كانت الدراسة في المعهد ، ولقد ابدى سامي غير مرة انه لم يكن ينفعل بها ، وانه كان يتلقاها غير حفي ، وانها لم تكن قط قادرة على ان تروي ظمأ روحه الى المعرفة والحياة .. .

فهل ثمة مؤثرات من نوع اخر ؟

لقد اشار سامي الى ان المعهد كان يدرس الفرنسية بمعدل ساعتين في الاسبوع ، فصمم على ان ينصرف الى المطالعة في الكتب الفرنسية ، ولكنه لم يكشف لنا عن حوافز الاستزادة او عن طبيعة تلك القراءات .

وكانت هناك مكتبة المعهد التي كانت تردها عشرات الكتب عربية واجنبية .. وكان هناك عزيز .

الواقع ان عزيزا في الرواية يمثل الكوة التي كشفت امام عيني هذا الفتى عالما اكثر تحررا وانطلاقا من عالمه المتزمت الضيق . ولعله بوحي من موهبته وذكائه الفطريين كان ينساق وراء مقارنات لا نهاية لها . ولعل تجربته المتمثلة في قطعة الرثاء التي كتبها اثر وفاة صديقه عزيز ، والتي بعث بها الى المجلة التي كان عزيز ينشر فيها قصصا مترجمة ، كانت اللمسة الروحية التي اكدت في نفسه الشعور بانه اكبر من هذا المعهد ، وان دنياه غير هذه الدنيا فبات يشعر بان الدروس تثقل عليه ، وانه لايجد لها مذاقا ولا لذة . وان المدرسين لم يفقهوا من الدين الا قشوره ، وانهم جلهم لايملكون اية ثقافة تمكنهم من القاء دروس مفيدة فاحس بانه ينفصل رويدا رويدا عن جو الدروس ليخلق لنفسه جوا خاصا يعيش فيه الادب والمطالعة .

هنا يحق للقارىء ان يناقش الاحداث وهو مقتنع ضمنا بان الفتى سامي قد تاثر بما يقرأ ، وان هذه القراءة قد قلبت مفاهيم كثيرة في ذهنه فيسأل ... ترى ما هو الموقف الفكري الذي اخذه سامي من « الله » حين قرر ان يخلع الجبة والعمة ، وان ينصرف بالتالي عن التعليم ؟

هل كونت له قراءاته ودراساته وتأثره بعزيز بعدا فكريا ساعده على ان يناقش « الدين » على صعيد فكري او هل هي قد خلقت فيه لونا من التشكك ـ الذي يداخل الشباب حين يؤخذون بكثير من الافكار التي تتناول الغيبيات ـ ساعد فيما بعد على اتخاذه تلك الخطوة ؟

اننا نجده يدخل المعهد ويتركه دون ان يحدد علاقته بالله باكثر من هذه العاطفة الانفعالية التي دفعته منذ البدء الى دخول المعهد ، وقد لايكون من حقنا ان نطالبه بهذا الموقف لو انه لم يتمرد على موقفه الخاص ، فمقومات الايمان لدى الاكثرية لاتقوم على اكثر من العاطفة الجارفة التي تاخذ الاشياء كمسلمات ، والتي لاتعني بان تفلسف اي شيء.

ان نزع الجبة له اكثر من دلالة تغيير الزي ، واذا كانت نازك قد عللته بانه لون من الردة على الاخلاص للاخرين ، رغبة من البطل في ان يخلص لنفسه اولا ، فاننا لا نستطيع ان ننسى ان هذا الاخلاص للاخرين كان متداخلا تماما مع اخلاصه للمثل الروحية ، فاقدامه على هذه الخطوة كان جديرا ان يثير مناقشات طويلة فيما بينه وبين نفسه ، حول هذه المثل الروحية ، وموقفه منها بعد ان قرر نبذ المشيخة .

ناحية علاقة الفتى بالله ، لا بالمعهد ، ـ التي اغفلتها الرواية ـ هي حلقة اساسية من حلقات الصراع التي تتعلق بانسان كان يعد نفسه ليكون رجل دين . اما لماذا لم تبرز بالشكل المفروض في خط الصراع ، فسؤال كان يجب ان يجد جوابه في دراسة نازك التي مالت الى اعتبار « المرحلة الرابعة » مرحلة **تمرد فكري مدروس** ، ولا شك ان الشمول الذي توحي به تسمية المرحلة كان يقتضي عدم التغاضي عن هذه الثغرة .

وبعد ، ان اقتصاري على التعقيب يجعل نفاذي الى الجوانب الاخرى المبدعة في الرواية امرا غير ذي مناسبة الان ، فلعلي اعود الى ذلك يوما ما ، ولعل غيرنا يفعل ذلك .

سميرة عزام